الدرس الثاني/ الدرّ الوقاد في شعر بكر بن حمّاد

أولا/ التعريف بالشاعـر بكـر بـن حمــاد:

ولد" أبو عبد الرحمان بكر بن حماد بن سهل بن أبي إسماعيل الزناتي التاهرتي"، حوالي(200هـ) الموافق(816م) وينسب إلى قبيلة **الزناتة** و إلى **تهرت**، وهي ولاية(تيارت) حاليا، والتي كانت عاصمة الدولة**(الرستمية)**، فنشأ بها وانكبَّ من صغره على الدرس، فتعلم على مشاهير علماء بلده. لم يلبث أن فارق وطنه، وهو في حداثة سنة عام (217هـ) الموافق (832م)، فالتحق**(بالقيروان)** بتونس التي كانت مركزًا علميًا،وقد تلقى مختلف العلوم على أيدي مشاهير علمائها ثم ارتحل منها إلى الشرق فدخل**"بغداد"**وكانت يومئذ زاخرة بالعلماء، فقد اتصل بفحول الشعراء الذين كان لهم ذكر وصيت منهم: أبو تمام، ودعبل الخزاعي، وعلي بن الجهم.. وكان **لأبي تمام** التأثير الكبير على تفتيق موهبته الشعرية وصقل ذوقه الأدبي. واتصل**(بكر بن حماد)** بخلفاء الدولة العباسية، وقال فيهم الشعر الرائق، فأصفوه ودّهم، وأغدقوا عليه إحسانهم كغيره من أدباء بلاطهم. ثم بعد مدة عاد إلى مربع صباه، فدخل في طريقه إلى(القيروان) بتونس سنة(274هـ) الموافق(887م)، فلم تكن مجالسه لتخلوا من المناظرات العلمية في شتى صنوف العلم والأدب، فترامى صيته في الآفاق ووصل خبره إلى الأندلس،غير أنّ المقام(بالقيروان) لم يدم طويلا بل رجع إلى بلده **"تيهرت"**سنة(295هـ) الموافق(907م)، فأصبح بها حجة أدباء عصره.

وقد توفي(بكر بن حماد) بقلعة **"**ابن حمة**"** شمال مدينة **تيهرت** وذلك سنة(296هـ/909م) متأثرا بجراح تعرض لها حين عودته مع ابنه (عبد الرحمان) من القيروان سنة(295هـ)، أين باغتهما قطّاع الطرق فقتلوا الابن وجرحوا الوالد. وقد تأثر لوفاة ابنه تأثرا شديدا، فرثاه بقصائد حسان. وقد جُمَعتْ أشعاره في ديوان شعري سمي**(بالدر الوقاد في شعر بكر بن حماد التاهرتي)**. ومن أغراضه الشعرية التي نبغ فيها:

1/غـرض الرثــاء: يعتبر غرض الرثاء من أكثر الأغراض التي برع فيها الشاعر، وله قصيدة حزينة تُعدّ من عيون الشعر العربي في الرثاء على فراق ابنه الذي قتل أمام عينه، وكان لهذا الموت أثر عميق في نفسه وذرف عليه دموع صادقة حارة، والتي يقول فيها:

بكيت على الأحبة إذْ تولوا ولو أني هلكت بكـوا عليّـا

فيا نسلي بقاؤك كان ذخـرا وفقدك قد كـوى الأكباد كيّا

كفى حزنًا بأنــي منك خلو وأنّــك ميّت وبقيـت حيّــا

دعوتك يـا بني فلم تجبنـي فكـانت دعوتــي بأسًا عليّـا

ولم أك آيسًا فيئست لمـــا رميت الترب فوقك من يديّـا

فليت الخلق إذ خلقوا بــواق وليتك لـم تكن يا(بكر) شيّا

فـلا تفرح بدنيـا ليس تبقــى ولا تأسف عليهـا يـــا بنيـا

فقد قطع البقاء غروب شمس ومطلعها علــي يـــا أخيـا

وليس الهـمّ يجلـــوه نهـــار تدور لـــه الفراقـد والثريـــا

يفتتح الشاعر مرثيته بلفظة**"بكيت"** للتعبير عن الحزن والأسى واليأس، لفقده لابنه وكلها معانٍ تشيع في كامل القصيدة، ونجده يهمس إلى نفسه بآهاته وأحزانه نتيجة خسارة ابنه، ولا سيما يناديه(ياأخيا) ومناداته، تمني إقبال ابنه واستجابته، وكأنّ عزاؤه في النداء، فقد كان ذخره في الحياة الدنيا، فالشاعر أصبح حبيس النفس معتلاً، وزادت من معاني ذلك بروز أفعال العلة: بكى ـ كوى ـ طوى ـ رمى.. .

2/غـرض الزهـد: قد أسهمت البيئة الدينية التي ولد الشاعر بها وترعرع فيها في حضور أغراض بعينها إذْ نجد أنّ لغرض الزهد والوعظ الحضور الكبير، ولقد<< عُرِف بكر بن حمّاد بشعر الزهد حتى أنّنا لا نغالي إن أطلقنا عليه أبا العتاهية الجزائر>>. فلقد تزعم الحركة الزهدية في الأدب المغاربي،كما كان يتزعمها أبو العتاهية في المشرق. ومن شعره في(**الزهديات**)هذه المقطوعة التي تَشْهد له بالبراعة في هذا الغرض:

لقد جمعت نفسي فصدّت وأعرضت وقد مرقت نفسي فطال مروقهـا

فيـا أسفـي من جنح ليل يقودهـا وضـوء نهـار لا يزال يسوقهـا

إلى مشهد لا بـدّ لـي من شهـوده ومن جزع للموت سوف أذوقهـا

ستأكلها الديدان فـي باطن الثرى ويذهب عنـها طيبهـا وخلوقهـا

ساب المنايـا كـل يـوم يظللـــه فقد هطلت حولي ولاح بروقهـا

وللنفس حاجات تروح وتغتــدي ولكن حدثان الزمـان يعـوقهـــا

وأيدي المنـــايا كل يـــوم وليلة إذا فتقت لا يستطاع رتـــوقهـــا

شهد ببراعة(**بكر بن حماد**) في الأدب وبشاعريته الكثير من الأدباء،فقال عنه(البكري):<<إنه كان ثقة مأمونًا حافظًا للحديث،>>وقال:ابن عذاري:<< كان عاليا بالحديث وتمييز الرجال وشاعرا مفلقا>> والتاريخ سجل له شعرا كثيرا في جميع الأغراض من غزل ومدح ورثاء وهجاء واعتذار وزهد ووعظ..، كان يعرف بالشاعر لكثرة قصائده وحسن شعره. وتعتبر قصائده التي أفلتت من يد الزمان شاهدا على نبوغه وشاعريته المتقدة، وعبقريته المتفردة، وقد اصطبغ شعره بصبغة الشعرية العربية، وازدان بلغة الآيات القرآنية واستنار بضوء السنة النبوية، ولذا كانت لغته راقية، رطبة، ندية. كل ذلك أهّله لمنافسة كبار الشعراء في(بغداد) عاصمة العبّاسيين، فقربه الخلفاء والأمراء، واعترف له بالفحولة الشعرية كبار أكابر الشعراء، كأبي تمام، وكان أينما حلّ لفت الأنظار فلَقِيَ العناية والإكبار، فنال الحظوة لدى حكام المغرب الرستميين والأغالبة والأدارسة، ووفد إليه المثقفون وطلبة العلم من مختلف الربوع والأصقاع، خاصة من الأندلس، ويحق أن يقال عنه شاعر المغرب العربي، وأنّه فريد عصره في ميدان القريض(الشعر).